«خطاب الجنون في الثقافة العربية»
لمحمد حيَّان السمَّان
صوت يكشف، ويعوِّض...، ويرسم حلماً بالتصدِّي

تجد أخبار المجانين حيِّزاً واسعاً في كتب التراث العربي، والملاحظ أن مؤلِّفي هذه الكتب يولون تلك الأخبار وأصحابها اهتماماً يتتبَّعها ويسجِّلها، ويضيف إليها ما ينتجه الناس، وينسبونه إلى عَلَم من أعلام أولئك المجانين الذين كانت تُطلق عليهم تسميات مختلفة، مثل موسوس، بهلول، مجذوب، أصابه مسّ إلخ...

يرى بعض المؤلِّفين أن هؤلاء «كان لهم فضل ودين ومعرفة، فزالت عقولهم، وبقي ذلك الفضل، فلم يختلط في ما اختلط، ويقف بعضهم الآخر ناحية يستجلب مخاطبتهم، ويرصد الفائدة منهم. والسؤال الذي يطرح، في هذا المقام: أيّ فضل خالص كان يبحث عنه النَّاس لدى مجانين يلقون كلامهم في الأمكنة العامَّة؟ وأي فائدة كانت ترتجى من هذا الكلام الذي يُستجلبون إلى النّطق به؟».

يحاول الأستاذ محمد حيَّان السمّان، في كتابه «خطاب الجنون، في الثقافة العربية»، أن يجيب عن هذين السؤالين وأسئلة أخرى، وذلك عندما يبحث في ست قضايا هي: محتوى دلالة الجنون المقصود والمصادر التي تتضمن أخباره، موقع صوت الجنون في المجتمع والثقافة، المميِّزات الجمالية ـ التعبيرية في الشخصية الجنونيَّة، صوت الجنون ومسألة الخلافة الاسلامية، المجنون قائداً، صوت الجنون في فضاء المدينة الإسلامية.

حكمة مقموعة

يقرِّر المؤلِّف أنَّ صوت الجنون كان يرتفع حرّاً واضحاً أمام الملأ، في الأمكنة العامَّة، بكلام جيِّد يجهر بالمهموس ويبوح بالسرِّي، في الزَّمن الصَّعب. وكان هذا الكلام يتَّخذ شكل الحكمة البليغة الرائية إلى الواقع المرير، والمتجسِّدة في سياق لغوي جمالي راقٍ يتَّصف بالطَّرافة «واللمعة» المضيئة الكاشفة التي يلقيها صوت شعبي في بنيته التعبيرية ودلالته وإرساله وتلقِّيه، وفي إعادة إنتاجه من جديد.

وكان الناس يقبلون على هذا الصوت، ويتداولونه ويدرجونه في سياق ثقافتهم. ولا يعود السبب في ذلك إلى وظيفة تبدو لأوَّل وهلة هي الأساس في ذلك، وهي الترويح والتندُّر والتفكّه، وإنَّما إلى سبب آخر ينيط بهذا الصوت وظيفة أخرى، تتمثل في كونه يشكل جانباً مهمَّاً من ثقافة المضطهدين، وحكمتهم الشعبية التي قُمعت، فلجأت إلى المجنون، وانتسبت إليه، فظهر المجنون في الكتب، كما في الوعي الشعبي، حكيماً شعبياً ينطق بتطلُّعات الناس وآلامهم ورؤاهم إلى واقعهم.

في منهج المقاربة

ولمَّا كان صوت الجنون يتخذ مثل هذه الأهميَّة، فإن دراسته تقتضي اعتماد منهج تاريخيّ يتتبَّع تجلِّيات هذا الصوت في سياقه التاريخي، فيلحظ خصائصه في كلِّ مرحلة، وتطوّر هذه الخصائص، وهذا ما لم يفعله المؤلِّف، إذ إنه تناول أخبار المجانين بوصفها كمَّاً عامَّاً، يستوي في ذلك ما قدَّمه العصر الأموي وعصر الدويلات على سبيل المثال، ويستوي، في ذلك أيضاً، جميع المجانين، من دون النظر إلى الفروقات المختلفة التي يفترض أن تكون موجودة في ما بينهم.

ولعلَّ هذا يعود إلى رؤية المؤلَّف التي تنطلق من مفهوم ثابتٍ للسلطة والمجتمع، وللصوت المحتجّ، الكاشف للواقع الذي ارتفع متخذاً شكل الجنون. وفي تقديري، أن سيرورة التاريخ العربي عرفت تغيُّراً، أو تحولاتٍ، الأمر الذي يفضي إلى تغيّر في الخطاب وتحوُّل فيه، وخصوصاً أن الشعب لم

يكن «كمّاً» أيضاً، وإنما كان متنوّع الانتماء، ومن الأمثلة على ذلك، نذكر أن «بهلول» العصر العباسي كان ينتمي إلى مذهبٍ معيَّن، فبم اختلف خطابه عن خطاب سواه من معاصريه ولاحقيه؟ ولم نسبت معظم أخبار الجنون، في مراحل تالية، إليه، ومن ذلك رسالة ذُكر أنها أرسلت للخليفة، بعد وفاة ذلك «البهلول» بسنة؟

البعد عن التاريخية الملموسة

يتحدَّث المؤلِّف عن صوت جنون مطلق، وعن سلطة ومجتمع مطلقين، وهذا تعميم يفتقر إلى التاريخية الملموسة، كما أن المؤلِّف يبحث في «خطاب الجنون» في الثقافة العربيَّة بعامَّة، كما يقول، لكنه يبحث، واقعاً، في بعض الأخبار الأدبيَّة المنتخبة من مصارد يسمِّيها، وهذا لا يشمل الثقافة بمختلف مكوِّناتها، وإنَّما يشمل المكوِّن الأدبي فحسب، بوصفه كمَّاً متجانساً في مختلف العصور. ولعلَّ النظر الدَّقيق كان من الممكن أن يؤدِّي إلى كشوفات جديدة.

من الملاحظات الجديرة بالذكر، في هذا الصَّدد، أن عادل العامل، ذكر في مقدمة كتاب «شعر ماني الموسوس وأخباره» أن «التعبير الحي العميق عن الموقف الرافض الأصيل من العلاقات الاجتماعية السائدة، لدى عدد من الشعراء المتَّسمين بالنَّقاء والجرأة، أو بالورع الحقيقي، فكان نصيبهم النبذ والاتهام بالجنون». إنَّ ما يذكره العامل يشير إلى حقيقة مفادها أن بعض الشعراء كان يُنبَذ ويُتَّهم بالجنون بسبب مواقفه، ونسأل هنا: أليس من المعقول أنَّ يكون كثير من المجانين الذين تتحدَّث عنهم كتب التراث من هؤلاء الذين نبذوا واتُّهموا؟

دلالة المجنون وموقف السُّلطة

قد يكون من المفيد القول: إنَّ دلالة المجنون التي اعتمدها المؤلِّف، في دراسته، تشمل هؤلاء المتَّهمين أيضاً، وهذه الدلالة، كما يوردها المؤلِّف هي: «أ ـ إمكانية المعرفة والإخبار عن الواقعات. ب ـ عدم الإصابة بمرض عضوي دماغي. ج ـ الفاعلية الاجتماعية، سلباً أو إيجاباً. د ـ القداسة والصدِّيقية».

لعلنا نفيد، من هذه الحقيقة، في فهم موقف السلطة من خطاب الجنون، إذ إنها تشير إلى إجراءات كانت تتخذها لتصنيف المعارضين في فئة المجانين الذين كان صوتهم، كما يقول المؤلِّف، «أداة من أدوات مناهضة المجتمع لعوامل القمع والاستغلال التي تعاني منها الفئات الاجتماعية الموجودة، في حالة تعارض مع قوى الحكم والمرجعيَّة الاجتماعية للسلطة». فلماذا ترتضي السلطة من المجانين صوتاً معارضاً ولا ترتضيه من العقلاء؟ ولم كان صوت المجنون حرَّاً كما يذهب المؤلِّف؟.

يقول المؤلِّف: إنَّ المجنون كان يحظى بالرعاية في المجتمع الإسلامي، وإن السلطة عاملته بتسامح تقتضيه الأخلاق السائدة، غير أنه لا يلبث أن ينقض هذا الرَّأي عندما يقول: «ومما لا شك فيه أن الأخلاق لم تكن لتحدِّد ممارسات الساسة وسلوكهم إلَّا بالشكل الذي تخدم فيه الأخلاق السِّياسة».

وهذا يعني أن هناك أسباباً أخرى كانت وراء سكوت رجال السلطة، ومن هذه الأسباب، كما يضيف المؤلِّف، أن صوت الجنون تحرُّكٌ مُفرغ من إمكانات الفعل، ولا يحول بين الحاكمين وسلطانهم، وهذا ما ذكره معاوية مرَّة عندما قال: «لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا».

إن هذا السبب صحيح، والصَّحيح أيضاً أن صوت الجنون كان يحقّق للسلطة عدة أمور نذكر منها أنه كان شكلاً من أشكال التعبير التي تفرغ شحنات الغيظ المكبوت، فتطهِّر الذَات وتنفِّس ما تختزنه، وخصوصاً إن كان الموقف ساخراً يعرِّي ويضحك، ومن تلك الأمور، أيضاً، أن رجل السلطة كان يبدو راغباً في تلك التعرية مستجيباً لها، فيطلب الرَّشيد، على سبيل المثال، من بهلول مزيداً من الوعظ، ويقول: «زدني... فقد أحسنت»، وكان يبدو شديد التأثُّر بالوعظ، ويصل به الأمر إلى حدِّ البكاء في غالب الأحيان، كما حدث مع أحمد بن طولون، على سبيل المثال، الذي «كان حادّ الخلق والمزاج... ولما ولي مصر والشام ظلم كثيراً وعسف، وسفك كثيراً من الدِّماء، ومات في حبسه ثمانية عشر ألفاً...»، فهذا الوالي يأرق، ويرى كوابيس، ويشعر بنقمة الناس، فيبحث عن مخرج، فيكون في واعظ ينتهي به إلى أن «يبكي بكاءً كثيراً»، فكأنه

ينفِّس من نحو أول، ويظهر في صورة المتَّعظ الباكي من نحو آخر، وهو يقدِّم هذه الصُّورة للناس ليبدو بكَّاء تائباً نادماً...

صوت مُنَاهَضَة السلطة

إن صوت الجنون، في التراث العربي، كان مناهضاً للسلطة ووسيلة من وسائل مواجهة الطاغية، وملاذاً لصاحبه، ويحل أزمة المثقف إزاء السلطة الاستبداديَّة، في بعض الحالات، بوصفه مهرباً... غير أنه كان وسيلة من وسائل السلطة يفرغ شحنات الغيظ، ويظهر رجالاتها بمظهر الخاضع للوعظ، والتَّائب والنَّادم إلخ...

وإن تمادى صوت الجنون في احتجاجه، وتجاوز الحدود التي يُسمح له بها، كان صاحبه يُقمع، ويُرمى في «البيمارستان»، حيث يجد «ما يناسبه من عناية»!. هذا إضافة إلى أنَّ خطاب الجنون كان يتضمَّن حثَّاً على الزهد وترك مباهج الدنيا وثرواتها، وهذا ما كان يريده رجال السلطة، ويرغبون في توجيه أنظار الناس إليه.

يثير المؤلِّف أسئلة كثيرة، يحاول الإجابة عنها في جهدٍ موضوعي رصين، دقيق الأداء. وليس من شك في أنَّه وُفِّق إلى الكثير من النتائج الجيدة، ومنها قوله، على سبيل المثال: «ففي مواجهة الطُّغيان والتصفية الجسدية التي شكَّلت وسيلة بارزة من وسائل إدارة الصراع في المجتمع العربي ـ الإسلامي، وحيث الضعف المطلق للفرد في مواجهة السَّياف ومؤسسته، وحيث الاستلاب الكامل في الخوف أمام جلاوزة الدولة وجلاديها، تأتي كلمة المجنون لتوازن وتعوِّض، وترسم حلماً بالتصدِّي وتجاوز الخوف وبالنجاة والسلامة».

وهكذا يمكن القول، في هذا الصَّدد: إن الجنون كان طريقاً من طرق الخروج على الطُّغيان، في الوقت الذي كان الخروج الفعلي فيه يفضي إلى الموت...، وبين الموت والرضوخ والجنون...، كان كثير من النابهين يختارون الجنون الكاشف، المعوِّض، المؤدِّي وظيفة الترويح عن النفس وتنفيس غيظها، ورسم حلمٍ بالتَّصدِّي...